

الرومانتيكية الحاملة في الكثير من المواقف وما بطنت به الرواية من خلفيات تاريخية ونفسية واجتماعية، ومرتكزات ثقافية (غربية وعربية) وظفتها الكاتبة كمرجعيات وإشارات لتكثيف المعنى والمبنى معا، كان لها أثرها العميق الذي أثرى الرواية من جانبها السيكولوجي.

الكلمات المفتاحية: التحليل النفسي؛ لا وعي النص؛ لا وعي الكاتب؛ الذكورة؛ الأنوثة.

Abstract

This study aims to evoke the psychological analysis of the Algerian writer "Ahlam Mostaganemi" and define it in her novel "The Black Fits You" , "الأسود يليق بك" which is full of sensational events that almost do not differentiate between the narrator's self and the protagonist of the novel "Special Halo ". And that the writer's style has a beautiful and magical effect. The poetic language flowing with the psychic stations and the dreamy spiritual colors in many situations, and the novel's historical, psychological and social background, and the "Western and Arab" cultural elements that the writer employed as references and signs to intensify the meaning and the forme together, Which enriched the novel psychologically .

Key Words....

Psychoanalysis, The Unconsciousness of text, Masculinity, Femininity.

لا وعي النص

في رواية الأسود يليق بك

لأحلام مستغانمي

د. إيمان ملال

جامعة خنشلة

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى استحضار معالم التحليل النفسي عند الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي وتحديدًا في روايتها "الأسود يليق بك" التي تعج بأحداث لا شعورية تكاد تفصل بين الذات الساردة وبطلة الرواية "هالة"، خاصة وأن أسلوب الكاتبة له أثر سحري جميل، فاللغة الشاعرية، المتدفقة والمتقلبة بالمحطات النفسية والألوان



يشكل البحث المنهجي في مجال الدراسات التقنية، مسارا حافلا بالتفاعلات القائمة بين النقد العربي ومختلف المدارس النقدية الأوروبية، ثم تفاعل بين النقد العربي والنقد الغربي، وقد اتسم في مجال الاختبار بتنوعيات وفروقات واختلافات، سواء أكان في مجالات الأخذ من المصدر، أم في مستوى التطبيق والتأويل المنهجي، ولذلك كانت الدراسات النفسية في ميدان النقد الأدبي في العالم العربي تفاعلا متباينا مع الأصول التي استقى منها أدبياته، ومن ثم فإن الخطاب النقدي النفسي العربي -الذي عرف حقل الدراسات النقدية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين- لم تكن بداياته الجادة إلا منذ أربعينات القرن العشرين، حيث ظهرت دراسات تتميز بوضوح في الرؤية ووعي أكبر بالمنهج، وبدأ التحليل يدرس نفسية الشاعر من خلال شعره.

إن أغلب تلك الدراسات في مجملها بقيت تتراوح بين التعريف بعلم النفس العام وبين المنهج النفسي التحليلي، أو تعمل على القيام بمحاولات لتطبيق التحليل النفسي، بما يتيح القراءة السريرية القائمة على استنساخ قيمة نقدية، تربط بين المفاهيم التي تسعى إلى البحث عن حقيقة الإبداع وعلاقته بالأمراض النفسية، أو على اعتبار أن المبدع هو المادة الأساسية للدراسة.

تستهدف إذا مفاهيم مدرسة التحليل النفسي النص من دون أن تختزل صاحبه وتكون وظيفة المنهج النفسي البحث عن الأفكار المشتركة والملحة في النص الأدبي ليرتبط الاستنتاج من الأثر الأدبي بالمؤلف أو العكس. لا وعي النص في الأسود يليق بك

صدرت رواية "الأسود يليق بك" للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي بعد فترة من ظهور ثلاثيتها المعروفة (ذاكرة الجسد 1993، فوضى حواس 1979، عابر سرير 2003)، وهي الأعمال الروائية الناجحة التي رتبت صاحبيتها على أهما الكاتبة العربية الأكثر انتشارا، وقد كانت لرواية "ذاكرة الجسد" مكانة فنية وإبداعية ناجحة، وبعد عقد من الزمن أو بالأحرى زمن الثلاثية ظهرت الرواية الجديدة الموسومة "الأسود يليق بك".

تدور أحداث الرواية في ثلاث بيئات مختلفة من الجزائر (مروانة، قسنطينة والعاصمة) الشام (سوريا ولبنان) وأوربا (باريس وفيينا). بطل الرواية اسمها "هالة الوافي" فتاة جزائرية تنحدر من الأوراس تمتحن التعليم وتمارس هواية الغناء. مليونير لبناني ناهز عمره الخمسين سنة أعجبه مطربة جزائرية باسم هالة الوافي في السابعة والعشرين من عمرها شاهدها السيد طلال هاشم صدفة في برنامج تلفزيوني فقرر أن تكون له، بدأ طلال هاشم الذي جاهد ليثري محصوله الثقافي في الموسيقى والفن والشعر إلى وضع خطة تلو الخطة للإيقاع بهذه الحسنة التي ترتدي الأسود حدادا على مقتل والدها وأخيها خلال الاضطرابات التي شهدتها الجزائر في فترة من الفترات الحالكة.

تبدو الكاتبة أحلام مستغانمي في رواية "الأسود يليق بك" كما لو كانت تريد التجديد والتخلص من الموضوعات المطروحة في رواياتها السابقة، مع الحفاظ على خصوصية الوطنية الجزائرية والاجتماعية "أما الزج بالحنّة الوطنية والخصوصية الأوراسية الجزائرية كمنطلق للرواية فالأمر يحتاج إلى وقفة أعمق".⁽¹⁾ دلالة العنوان من وجهة نفسية

"الأسود يليق بك"، هكذا جاء عنوان الرواية، ومن دلالة هذا العنوان الذي يرمز للغواية ندرك أن الساردة تريد السيطرة على قارئها لما يحملها العنوان من ملامح للفتنة والإغراء، تريد بذلك التواطؤ مع القارئ ليقراً النص كحالة عاطفية جنسية لا واعية أنجبت تلك العبارة "الأسود يليق بك" وهي عبارة تغزل بها طلال بهالة.

عادة ما يرمز اللون الأسود في علم النفس بالأمر المجهول والسرية، وهو لون الغموض أيضا، كما أنه اللون الذي يساعد الشخص في الوقاية والحماية من الإجهاد العاطفي الذي يمكن أن يتعرض له. حيث يخلق هذا اللون حاجزا بينه وبين العالم الخارجي المحيط، فيوفر له الراحة ويخفي نقاط الضعف وعدم الثقة بالنفس، وهذا ما نلمحه في شخصية هالة الشايحة قوتها. رآها لأول مرة بفستان أسود أنيق جذاب وأحبها به... ولم يكن سواده حدادا لأنها تؤمن أن "الحداد ليس في ما ترتديه بل فيما نراه...".⁽²⁾ وكان يصير عليها في لقاءاتهم بعد ذلك أن ترتدي اللون الأسود لأنه يلبق بها كما كان يردد في كل لقاء لهما.

إن القارئ لأعمال أحلام مستغانمي لا يتوانى في تصريحه أن الكاتبة ما هي إلا بطلنة رواياتها، ففي هذا العمل امتزجت عوامل هالة وأحلام، بل كانت تطفو إلى ثانيا الرواية، لاسيما ونحن نبحت عن لا وعي النص وليس لاوعي الكاتب، وتبدو هذه المظاهر في مقولة جان بيلمان نويل في كتابه "التحليل النفسي والأدب".

"إن القارئ الذي يسبح في النص لأجل الإصغاء إلى عمل لاشعوري عندما يأخذ القلم ليتوجه إلى الجمهور عليه أن يكتشف في نفسه وسائل تسمح له بنقل هذا العالم إلى لاشعور قرائه".⁽³⁾

يبدو النص في الرواية وكأنه يتماها مع واقع التخيل السردي، وتوضح ملامحه من خلال ما يجري في لاشعور الشخصية من أحداث بدأت حاشدة لكثير من الممارسات الذاتية والمعرفية التي مرت بها البطلنة من مرحلة الطفولة الأولى وهي أهم مرحلة نبهنا إليها فرويد أثناء تحليله لنفسية كثير من الأدباء.

تقول الكاتبة ماري إسكندر عيسى في هذا الموقف: "رغم محاولة الروائية أن تخفي وراء بطلنتها هالة الوافي تاركة الحديث لها أحيانا، لكنها لم تستطع أن تخفي التشابه بينهما، فبطلنتها مفعمة شاعرية وإنسانية ومنتقدة ذكاء وهي صفات عرفناها عن أحلام مستغانمي من خلال كتاباتها على حسابها الاجتماعي".⁽⁴⁾

تتماها إذا الخلطة الفنية للروائية مع اللمسة النفسية لبطلنتها في النص الروائي، الذي لا يصدر فيما بعد إلا متناسقا واستثنائيا، فيميز الفعل الروائي الجديد كصورة تشكيلية، مبرها المباشر طموح النص نفسه ورغبته في بلوغ كل المستويات التعبيرية وملازمة جميع الحدود اللغوية والنفسية. "فالرواية اليوم تعمل من خلال تفعيل كل المؤثرات الممكنة، على اختلاف مواقعها في الداخل والخارج؛ أي داخل النص الأدبي في حد ذاته، وخارج حدوده وأبعد من ثقافته التي يصدر عنها"⁽⁵⁾، وبذلك تكون أحلام مستغانمي من أبرز الروائيات اللواتي جسدن هذه الخلطة، ولعل ما يجمع تلك الآراء هو الاتفاق على أنها تحمل في عملها همة فردية وجماعية ووعيا إنسانيا بواقعها والكتابة معا.

يتجسد المنحى اللاوعي داخل هذا النص الروائي، ونحاول أن نركز على اتجاهاته من خلال تناول عدة مسارات تتمحور جميعها حول مقاربات الشخصية في شتى أطوارها المعيشية منذ النشأة الأولى، كذلك في شخصية هالة وهي الرغبة المكبوتة والترزع الدائم إلى فعل ما تريد بطريقة لاشعورية أملت عليها المواقف والأحداث المتواجدة فيها ونزوات الحياة المنغمسة في لذاتها، وهذا المصطلح كان لفرويد لقاء معه في دراساته النفسية، حيث اصطلح عليها بتزوات الحياة وهي فئة "كبرى من التزوات التي يضعها فرويد في نظريته الأخيرة، في مقابل نزوات الموت، وترزع إلى تكوين وحدات متزايدة في كبرها على الدوام وإلى الحفاظ عليها. ولا تقتصر نزوات الحياة التي يدل عليها أيضا بمصطلح الإيروس على تغطية التزوات الجنسية الفعلية وحدها، بل هي تشمل نزوات حفظ الذات".⁽⁶⁾ وهذا ما نلمحه في الرواية من مظاهر للبدخ الذي مارسه طلال هاشم والذي سعى إلى استمالتها، بل والاستحواذ عليها بماله وتصرفاته الغرائبية ولا نجد لها إلا وقد استجابت له.

صراع الذكورة والأنوثة عند أحلام مستغانمي

تعيش هالة صراعا بين نصفها الجنسي الذكوري والأنثوي فتقول "راح نصفها الشرس يحاكم نصفها الوديع، رحولتها تحاسب أنوثتها المطبوعة، ألم يقل لها أحدهم متغزلا أجمل ما في امرأة شديدة الأنوثة، هو نفحة من الذكورة؟ مصيبتها كونها اكتسبت أخلاقا رجولية، وكثيرا ما قست على نفسها كما لو كانت أحد غيرها، والآن ما عادت تعرف كيف تعود من جديد اثنين ولا كيف تستعد لهذه المداهمة العاطفية".⁽⁷⁾

ينطبق هذا الصراع مع ما أقر به سيغموند فرويد، حيث أكد على تنوع الدلالات التي تتضمنها مصطلحات الذكورة والأنوثة، فهناك الدلالة البيولوجية التي ترد الشخص إلى خصائصه الجنسية الأولية والثانوية، وهناك الدلالة الاجتماعية التي تتفاوت تبعاً لتفاوت الوظائف الواقعية والرمزية التي تعطي للرجل والمرأة في الحضارة موقع البحث، وهناك أخيراً الدلالة النفسية الجنسية التي تتشابك بالضرورة مع الدلالات السابقة.⁽⁸⁾ وهكذا فالمرأة التي تمارس نشاطا وظيفيا يتطلب صفات الاستقلالية وقوة الطبع والمبادرة، ليست بالضرورة أكثر ذكورة من أي امرأة أخرى. ومغامرات هالة مع الآخر أفصحت عن وهم الفكرة - التي أقرها فرويد -؛ أي ما يشبه الانصهار العاطفي مع البعد الذكوري المقيم في النفس الأنثوية.

الطبائع الفردية لشخص الرواية (هالة)

إن المتأمل لمن الرواية أو بالأحرى عنوان الرواية يلحظ تحديدا منفصلا لعبارة (الأسود يليق بك) تفرضه الفسحة النفسية السياقية التي طغت على شخص الرواية، فالعتمة التي صبغت أحداث وأبطال الرواية لها دافع نفسي، فطبيعة العلاقة التي تجمع بين الأسود كقناع تستتر وراءه مشاعر سوداء، يتخللها الحزن والوحدة والإحساس بالوحشة. "والعنوان من هذا المنطلق يسند اللون الأسود كمظهر خارجي وهذا راجع إلى مقصدية المؤلفة في جعل اللون الأسود عنصرا أساسيا من بين العناصر الموازية له في المتن الروائي".⁽⁹⁾

يتبدى الصراع جليا من خلال التعارض الحاصل في دلالة اللون الأسود، بحسب الظروف النفسية التي تعيشها هالة. فتارة يوحى اللون بالحداد والظلمة والهموم (مقتل والدها وشقيقها وما تعرضت له من أزمات حادة)، ومن جهة أخرى هو لون الأناقة الموضحة (لحظة إعجاب طلال بما وأثناء ارتدائها لثوب أسود). وهذا الذي يخلق نوعا من التعارض بين مظهرين، ذلك أن المظهر الأول يكون فيه الأسود باعثا على المعاناة التي تفيض من أعماق الشخصية، وكون الأسود يناسبها يجلبنا إلى دلالات توحى بحجم المعاناة والألم الذي تعاني منها ضد الشخصية، وإن كانت تصرفاتها تظهر عكس ذلك - أحيانا - وهذا ما جعل المؤلفة تربط بين اللون الأسود والبطلة واختيار هذا اللون دون غيره من الألوان لتصوير المعاناة التي تعيشها هالة أو أحلام على حد سواء.

هالة

تقول حنان فاطمة الزهراء تكتسي شخصية المرأة حضورا مميزا في الرواية العربية عموما والجزائرية خصوصا، فهي كبركة المياه الصافية تنعكس عليها الحياة بكل تفاصيلها وتناقضاتها، في أحلك أزماتها وعز مسراتها... باعتبار ميزاتها الجنسانية كونها أنثى أولا وكذا باعتبار ميزاتها النفسية والاجتماعية ثانيا، والمرأة بطبعها الضعيف تتخذ في غالبية الأحيان موقع القوة والمقاومة والدفاع عن نفسها وعن حقوقها في مواجهة الآخر، سواء كان هذا الآخر سلطة اجتماعية فرضتها العادات والتقاليد أو السلطة الأبوية الذكورية أو حتى الغرامية. وتتجسد هذه المقاومة في البطلة هالة وفي شخصيات أخرى نسائية، ومن خلال صور متعددة، فمثلا تضيف الباحثة: "من سلاح اللغة ممثلا في متانتها عند الكاتبة إلى قوة الثقافة والفكر،

حيث تستجمع البطلة كل صفات النضج الفكري والحكمة اللغوية من خلال محاوراتها الداخلية والخارجية، وصولاً إلى أقوى وأضعف أسلحتها في آن واحد".⁽¹⁰⁾

تبرز ملامح الأنوثة عن هالة على شكل رموز ودلالات كثيرة تأسر ربها الآخر (الذكر) في عالمها الساحر... إلا أنها تصل أحياناً درجة تأخذ على المرأة كيانها لتستحيل في ساحة المعركة مقاتلة بنفسية (أسير).⁽¹¹⁾

مثلما بدأت الرواية، بانتهاء علاقة الحب الجنونية بين الطرفين، انتهت أيضاً بفاجعة حلت على هالة جعلت الرواية تستنتج أن العمق الذكوري في صورته البراغمية الرقمية والمتمثل بشخصية طلال اللباني الممزقة داخلياً لا يختلف عن القمع الأصولي الدموي المتمثل بجماعات الذبح في الجزائر، ولذلك تقول: "ما هربت هالة من إرهاب إلا ووقعت في قبضة إرهاب مقنع؛ تصدت لإرهاب القتل وإرهاب الدولة، وإرهاب العائلة، ها هي أمام الاستبداد العاطفي غير مصدقة أن رجلاً لجأت إليه أملاً في سند أبدي ليس سوى إرهابي استحوذ على صوتها بسلطة ماله، بدأ بشرائه ليستمتع به وحده، وانتهى بمنعها من الغناء إلا حين يأذن لها".⁽¹²⁾

تقول في موقف آخر "امرأة تضعك بين خيار أن تكون أن تكون بستانيا أو سارق ورود لا تدري أترعاها كنبته نادرة أو تسطو على جمالها قبل أن يسبقك إليها غيرك".⁽¹³⁾

عبارة فضفاضة لها أكثر من معنى، وفي شقها الأكبر هو تصريح على همجية المجتمع الذكوري، ففي أكثر من موقف تشبه البيانو بالأنيق، وكأن الكاتبة أرادت عبر هذا التشبيه تصوير العوالم النفسية الداخلية للرجل الشرقي الذي لا يهزم، فذكوريته المتضخمة بفعل ثرواته المتراكمة تمنعه من أن يتقبل فكرة خسارته أمام امرأة فضلت نجاحتها عليه وعلى بذخه وهداياه الثمينة.⁽¹⁴⁾

لا تقبل أنثى أحلام مستغانمي الفرق الذي أحدثه هذا المجتمع بين الرجل والمرأة وتشير إلى أنها تعني الاعتقاد بأن المرأة لا تعامل على قدم المساواة -لا لأي سبب سوى كونها امرأة- في المجتمع الذي ينظم شؤونه ويجدد أولوياته حسب رؤية الرجل واهتماماته، وفي ظل هذا النموذج الأبوي أصبحت هالة وقريناتها المرأة المساوية للسلبية. وهذا ما جعل الروائية في نظري تنظم إلى ما يعرف بالنسوية، وهي من أكثر الحركات إثارة للجدل في القرن العشرين، حيث أصبحت ملمحاً مألوفاً من ملامح الخريطة الثقافية. ودخلت معترك الصراع بين الرجل والمرأة لتحقيق المساواة وكما تقول رائدة هذا الاتجاه سارة جامبيل: "...يمكن القول بأن النسوية هي حركة تعمل على تغيير هذه الأوضاع لتحقيق تلك المساواة الغائبة"،⁽¹⁵⁾ وتتمرد في الوقت نفسه على سلطة الرجل لتتخذ من الكتابة هوية سلاحاً.

يمكن لقارئ أحلام مستغانمي أن يلحظ الوعي بإشكالية الهوية الأنثوية، وبالإقصاء الذي مارسته الثقافة عليها، شأنها شأن كثير من النساء منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، بالرغم من الحركات النسوية التي ظهرت في العالم الغربي وحتى العربي التي نادى بالمساواة بين المرأة والرجل، وإلغاء الفكرة السائدة في المجتمع الذكوري والتي تؤكد أن الرجل يتسم بالقوة والمرأة بالضعف والرجل بالعقلانية والمرأة بالعاطفية والرجل بالفعل والمرأة بالسلبية، وهذا ما يجعلها محظ سخرية الرجل واحتزال مكانتها ليستمتع بها ويحقق شهوانيته، وهكذا اختارت أحلام التمرد ومساءلة الواقع والمجتمع لتبحث عن نفسها وعن المرأة التي بداخلها، وعن الأنثى التي مزقتها شبق الرجل الشرقي.⁽¹⁶⁾

الهوامش

المصادر والمراجع

المصدر

1- أحلام مستغانمي، الأسود يليق بك، نوفل للنشر، بيروت، ط1، 2012.

المراجع

2- أبشي فاطمة الزهراء ويزر نعيمة، الدراسة السيميائية السردية رواية الأسود يليق بك، الكلية المتعددة التخصصات، تازة، المغرب، 2013.

3- جان بليمان نويل، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997.

4- جان لابانش وج.ب. بوتنليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985.

5- حنان فاطمة الزهراء، شخصية المرأة البطلة وفعل المقاومة في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي
jil magazin of literary studies, 2015, vol 02, Issue 13

6- الجليلي شرادة، منتقدو الرواية بين الحساسية وسوء التقدير، قراءة متأنية في رواية الأسود يليق بك للجزائرية أحلام مستغانمي، جريدة القوس العربي، العدد 7891، تشرين الأول 2014.

7- حيدر عبد الرحمن الربيعي، نسوية النص في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، مجلة ثقافات، 2015.

8- سارة جامبيل، النسوية وما بعد النسوية، تر: أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2002.

9- ماري إسكندر عيسى، قراءة في رواية أحلام مستغانمي -الأسود يليق بك، الحوار المتمدن، مجلة الأدب والفن، 2013.

10- هند سعدوني، التشكيل المعماري في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، مجلة مقاليد، الجزائر، العدد الثامن، جوان 2015.

1- الجليلي شرادة، منتقدو الرواية بين الحساسية وسوء التقدير، قراءة متأنية في رواية الأسود يليق بك للجزائرية أحلام مستغانمي، جريدة القوس العربي، العدد 7891، تشرين الأول 2014، ص01.

2- جان بليمان نويل، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997، ص117.

3- المرجع نفسه، ص117.

4- ماري إسكندر عيسى، قراءة في رواية أحلام مستغانمي -الأسود يليق بك، الحوار المتمدن، مجلة الأدب والفن، 2013، ص01.

5- هند سعدوني، التشكيل المعماري في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، مجلة مقاليد، الجزائر، العدد الثامن، جوان 2015، ص191.

6- جان لابانش وج.ب. بوتنليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985، ص520.

7- أحلام مستغانمي، الأسود يليق بك، نوفل للنشر، بيروت، ط1، 2012، ص135.

8- جان لابانش وج.ب. بوتنليس، المرجع السابق، ص251

9- أبشي فاطمة الزهراء ويزر نعيمة، الدراسة السيميائية السردية رواية الأسود يليق بك، الكلية المتعددة التخصصات، تازة، المغرب، 2013، ص01.

10- حنان فاطمة الزهراء، شخصية المرأة البطلة وفعل المقاومة في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي

jil magazin of literary studies, 2015, vol 02, Issue 13, pp109-116.

11- المرجع نفسه، ص110.

12- الرواية.

13- الرواية.

14- حيدر عبد الرحمن الربيعي، نسوية النص في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، مجلة ثقافات، 2015، ص04.

15- سارة جامبيل، النسوية وما بعد النسوية، تر: أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2002، ص14.